

المؤلف

ابن الأثير الجزري

(٥٥٥ - ٦٣٠ هـ / ١١٦٠ - ١٢٣٢ م)

اسم واقبه : أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكرم بن عبد الواحد الشيباني ، المعروف بابن الأثير الجزري ، الملقب عز الدين .

مولده : ولد ابن الأثير بجزيرة ابن عمر ، من أعمال الموصل ، في اليوم الرابع من شهر جمادى الأولى سنة ٥٥٥ هـ (١) ، ثم انتقل والده به وبأخويه إلى الموصل في سنة ٥٧٩ هـ (٢) ، حيث أقاموا بها إقامة دائمة .

أسرته : وكان والد ابن الأثير موظفا عند ملوك الموصل منذ حكم عماد الدين زنكي ، وقد أحبرنا بهذا ، ابن الأثير وحده في ثنايا كتابه « الباهر » ، أما غيره من المؤرخين وأصحاب التراجم . فلم يهتموا بالترجمة له ، كذلك لم يتعرضوا له بالذكر حين ترجموا للمؤلف وأخويه .

وأول خبر ذكره ابن الأثير عن والده ، هو ما أورده في ترجمته لعماد الدين زنكي في « الباهر » حيث يذكر أن والده سار إلى قلعة جعبر في سنة ٥٤١ هـ ، حينما كان يحاصرها عماد الدين ، ونزل عند الوزير جمال الدين — وزير عماد الدين — الذي كان يرافقه في الحصار ، ولما علم عماد الدين بوصوله ، أرسل إليه أحد غلمانه يسأله عن أخبار حصار قلعة « فنك » — وكان عسكر عماد الدين يحاصرها في نفس الوقت الذي كان عماد الدين يحاصر بنفسه قلعة جعبر — فأخبر الوالد ، الغلام بما يطعمن عماد الدين (٣) . ولم يذكر ابن الأثير شيئاً عن وظيفة والده في الدولة في تلك السنة ، غير أننا نرجح أنه كان عامل الوزير على جزيرة ابن عمر ، ويؤيد هذا الترجيح ، ما ذكره ابن الأثير في الخبر الخاص بالملك سليمان

(١) ابن خلسكان (ج / ١ / ص / ٤٣٨) .

(٢) اعتمدنا في تحديده هذا التاريخ لانتقال ابن الأثير إلى الموصل مع والده وأخويه على ما ذكره اليوناني في ذيل مرآة الزمان (ج / ١ / ص / ٦٤) ، عن ضياء الدين — أخى ابن الأثير — بأنه ولد بجزيرة ابن عمر « وانتقل إلى الموصل مع والده في رجب سنة تسع وسبعين وخمسةائة » والمؤرخون يجمعون على أن والد ابن الأثير ، انتقل بأبنته جيبا إلى الموصل ، دون تحديده السنة ، وأقاموا بها .

(٣) أنظر ما يلي ، ص / ٧٨ ، (من النص) .

شاه السلجوقي سنة ٥٥٥ ، ذلك أن قطب الدين مودودا صاحب الموصل ، كان قد قبض على الملك سليمان شاه وحبسه بالموصل ، فلما توفي السلطان مسعود بن محمد السلجوقي في سنة ٥٥٥ ، أرسل أمراء همدان إلى قطب الدين ، يطلبون منه إرسال سليمان شاه إليهم لكي يولوه سلطاناً عليهم خلفاً للسلطان مسعود ، فاتفق قطب الدين مع سليمان شاه ، على أن يكون سليمان شاه سلطاناً وقطب الدين أتابكا له وجمان الدين وزيراً للسلطان ، ثم عزم جمال الدين على أن يجعل والد ابن الأثير نائباً عنه بالعراق الذي يتبع سلطة سليمان شاه ، ولكن المشروع كله فشل لأسباب ذكرها ابن الأثير في الخبر (١) .

كذلك يذكر ابن الأثير خبراً آخر عن والده ، ويذكر فيه صراحة أنه كان يعمل في خدمة جمال الدين وزير الموصل وأنه كان نائباً عنه ، والخبر لا يحدد هذه النيابة . وإن كنا نرجح أنه كان نائباً عنه في جزيرة ابن عمر (٢) .

ثم يحدد الخبر الذي يذكره ابن الأثير عن والده في سنة ٥٦٥ ، في ترجمته لقطب الدين مودود صاحب الموصل ، أن والده كان يتولى رئاسة ديوان جزيرة ابن عمر وخزانتها (٣) . ثم لا يذكر ابن الأثير أكثر من هذا عن والده كوظف .

وكانت أسرة ابن الأثير على جانب من الثراء ، حيث يذكر المؤرخ أن أسرته كانت تملك عدة بساتين بقرية العقيمة من أعمال جزيرة ابن عمر (٤) ، كذلك كانت تملك قرية بأسفل الموصل يقال لها قصر حرب ، ويقول ابن الأثير ، إنه جمع أكثر مادة كتابه « السكامل في التاريخ » في دار لهم بهذه القرية (٥) .

كذلك كان والد ابن الأثير يشتغل بالتجارة إلى جانب وظيفته ، حيث يذكر المؤرخ خبر استيلاء الصليبيين — في سنة ٥٦٧ — على مراكب للمسلمين قادمة من مصر إلى الشام ، وكان لوالده فيها تجارة (٦) . ويذكر أيضاً في أخبار سنة ٥٨٨ ، أن الفرنج استولوا على قافلة برية للمسلمين بنواحي الحليل . وكان لابن الأثير — أو لوالده — تجارة في هذه القافلة فنهبت (٧) .

ولم يترجم ابن الأثير لوالده بعد وفاته ، لافي « السكامل » ولا في « الباهر » ، كذلك لم يترجم له أحد من المؤرخين أو أصحاب التراجم . ولذلك فنحن نجعل تاريخ وفاته ، غير أن ابن الأثير ، ذكر خبراً في « الباهر » يبين منه أنه كان موجوداً في سنة ٥٨٧ في الموصل ، وخلاصة الخبر أن عز الدين مسعودا ، صاحب الموصل ، حاصر جزيرة ابن عمر في هذه السنة ، وخرج معه مجد الدين أبو السعادات — أخو المؤرخ — فلما عاد عز الدين إلى الموصل ، أمر عسكره ألا يدخلوا المدينة ، وأن يعسكروا خارجها

(١) أنظر ما يلي ، ص / ١٤٧ ، (من النص) .

(٢) أنظر ما يلي ، ص / ١١٨ ، (من النص) .

(٣) أنظر ما يلي ، ص / ١٤٧ ، (من النص) .

(٤) أنظر ما يلي ، ص / ١٤٧ ، (من النص) .

(٥) السكامل ، ج / ٥ / ص / ٢٠ .

(٦) أنظر ما يلي ، ص / ١٥٥ ، (من النص) .

(٧) السكامل ، ج / ٩ / ص / ٢٢٠ .

فمنصب مجد الدين خيمته مع الجند ولم يدخل الموصل ، ولكن عز الدين صرح له بدخولها ، وقال له :
إن والدك أمير الدين له مدة مراك ، ولا شك أنه اشتاك (١) .

وكان عز الدين المؤرخ ، أوسط أخويه مجد الدين وضياء الدين سنا ، فقد ولد مجد الدين أبو السعادات
المبارك سنة ٥٤٤ ، وولد عز الدين سنة ٥٥٥ ، وأما ضياء الدين نصر الله ، فإنه ولد سنة ٥٥٨ . وكان
أول المتوفين من الإخوة ، مجد الدين حيث توفي سنة ٦٠٦ ، ثم تلاه عز الدين المؤرخ فتوفي سنة ٦٣٠ ،
أما ضياء الدين فإنه توفي سنة ٦٣٧ . (٢)

وقد اتجه كل من الإخوة الثلاثة إتجاها خاصا في حياتهم العلمية . فقد اختار مجد الدين العلوم
الدينية ، واختار ضياء الدين الأدب ، أما عز الدين فقد اختار التاريخ ، فاشتهر كل منهم في ميدانه ، فقد
نال مجد الدين شهرته في مؤلفاته في الحديث والتفسير والكتابة والرسائل ، واشتهر ضياء الدين بمؤلفاته
الأدبية وفي مقدمتها «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» . أما عز الدين فإنه اشتهر بمؤلفاته التاريخية ،
وفي مقدمتها كتابه «الكامل في التاريخ» .

وقد خدم كل من مجد الدين وضياء الدين الزنكيين وكبار موظفيهم . فقد كان مجد الدين كاتب الإنشاء
لمجاهد الدين قايمار وزير عز الدين مسعود صاحب الموصل ، ثم تولى ديوان رسائل عز الدين مسعود
نفسه ، ثم ديوان ابنه نور الدين أرسلان شاه من بعده . ثم عرض له مرض منعه من الكتابة ، فأقام
في داره يغيثه الأكارم والعلماء ، وأنشأ رباطا بقربة « قصر حرب » ووقف أملاكة عليه وعلى داره
التي يسكنها بالموصل . وقد ألف كتبه كلها أثناء مرضه (٣) .

أما ضياء الدين ، فإنه وزر للملك الأفضل بن صلاح الدين الأيوبي صاحب دمشق ، فأساء السيرة
حتى أثار عليه الناس فهموا بقتله . ولما خرجت دمشق من يد الأفضل ، التحق مجد الدين بخدمة الظاهر
غازي صاحب حلب ، ولكن لم يطل مقامه عنده وخرج مغاضبا له وسار إلى الموصل ، ولكن لم تطب
له الإقامة بها ، فرحل منها إلى إربل فلم يستقم حاله بها أيضا ، فرحل عنها إلى سنجار ، ولكن لم يلبث
أن عاد إلى الموصل واستقر بها ، فالتحق بخدمة ملكها ناصر الدين محمود بن الملك القاهر عز الدين مسعود
بوظيفة كاتب الإنشاء ، وذلك سنة ٦١٨ . ولما مات ناصر الدين محمود كتب لبدر الدين لؤلؤ بعد أن
آلت إليه الموصل . وفي سنة ٦٣٧ سيره بدر الدين رسولا إلى خليفة بغداد فقات بها (٤) .

أما عز الدين المؤرخ فالراجح أنه لم يدخل في خدمة ملوك الموصل ، حيث أنه لم يذكر هو نفسه ،
ولم يذكر من ترجم له أنه شغل وظيفة ما . إلا أن ابن خلكان يذكر في ترجمته له ، أنه سافر لبعض ملوك الموصل
من الزنكيين إلى بغداد ، ولكن لم يسم هؤلاء الملوك (٥) . أما ابن كثير ، فإنه يذكر في ترجمته لابن

(١) أنظر مايلي ، ص ١٨٦ (من النص) . (٢) شذرات الذهب ، ج ٥/ص ٢٢/ ١٣٧ / ١٨٧ .

(٣) ابن خلكان ، ج ١/ص ٥٥٧ وما بعدها . (٤) ابن خلكان ، ج ٢/ص ٢٠٨ .

(٥) ابن خلكان ، ج ١/ص ٤٣٨ .

الأثير ، أنه وزر لبعض ملوك الموصل ، ولكنه لم يسم هؤلاء الملوك أيضاً (١) . ولا شك أن هذا وهم من ابن كثير .

هبة : ولد ابن الأثير — كما ذكرنا من قبل — في جزيرة ابن عمر في اليوم الرابع من شهر جمادى الأولى سنة ٥٥٥ ، ثم انتقل إلى الموصل مع والده وأخويه في سنة ٥٧٩ ، أى وهو ابن أربع وعشرين سنة . ومعنى هذا ، أنه نشأ وربى وتلقى دروسه الأولى في جزيرة ابن عمر . والواقع أنه ليس لدينا معلومات عن طفولة ابن الأثير وصباه ومراحل تعليمه في صغره . فقد ضن ابن الأثير بالترجمة لنفسه ، كذلك ضن من ترجم له بتفاصيل نشأته ، وإن كان من المفروض أن والده اهتم بتعليمه وتعليم أخويه إهتماماً كبيراً ، ظهر أثره في نبوغ الإخوة الثلاث كل في ميدانه .

تعليم : ومن الطبيعي أن يكون ابن الأثير قد حفظ القرآن في صغره ، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة في أحد المكاتب حسب عادة أهل عصره . ولما شب عن الطوق ، انتقل إلى مرحلة الدراسة العميقة . فجلس إلى الشيوخ يتلقى عليهم العلم ، فدرس الحساب ، واللغة . والفقه ، والحديث . وابعده درس غير ذلك من العلوم ، كالأصول ، والفرائض ، والمنطق ، والهيئة ، والنجوم ، والقراءات ، فإن من شيوخه من كان يتقن أكثر من علم .

سُبوخه : وقد ترجم ابن الأثير لبعض شيوخه في كتابه « السكامل في التاريخ » ، ومن ترجم لهم : شيخه عبد الله بن سويدة ، المتوفى سنة ٥٨٤ ، فقال عنه : « في هذه السنة توفى شيخنا أبو محمد عبد الله ابن عبد الله بن سويدة النكري ، كان عالماً بالحديث ، وله تصانيف حسنة (٢) » .

وشيخه ابن أفضل الزمان ، المتوفى سنة ٥٨٥ : « وفيها — في صفر — توفى شيخنا أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن وهبان ، المعروف بابن أفضل الزمان ، بمكة . وكان رحمه الله عالماً متبحراً في علوم كثيرة خلاف فقه مذهبه ، الأصولين ، والحساب ، والفرائض ، والنجوم ، والهيئة ، والمنطق ، وغير ذلك . وختم أعماله بالزهد ولبس الحشن ، وأقام بمكة حرسها الله تعالى مجاوراً فتوفى بها . وكان من أحسن الناس صحبة وخالقاً (٣) » .

وشيخه ابن رواحه ، وقد قتل سنة ٥٨٥ في وقعة عكا ، فقد حضرها مع صلاح الدين الأيوبي ، فلما انهزم قلب جيش صلاح الدين من الصليبيين ، وصل الصليبيون إلى التل الذي عليه خيمة صلاح الدين وقتلوا من مروا به ، ونهبوا ، وقتلوا عند خيمة صلاح الدين جماعة ، منهم ، شيخنا جمال الدين أبو علي بن

(١) ابن كثير . ج / ١٣ / ص / ١٣٩ . (٢) السكامل ، ج / ٩ / ص / ١٩٨ .

(٣) السكامل ، ج / ص / ٢٠٥ .

رواحة الخوى ، وهو من أهل العلم ، وله شعر حسن ، وما ورث الشهادة من بعيد ، فإن جده عبد الله ابن رواحة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قتله الروم يوم مؤتة (١) .

وشيخه ابن صدقة ، المتوفى سنة ٥٩٣ ، « وفيها توفى شيخنا أبو القاسم يعلى بن صدقة بن علي الفراقى الضريير ، الفقيه الشافعى . كان إماماً في الفقه ، مدرساً صالحاً ، كثير الصلاح . سمعت عليه كثيراً ، لم أر مثله ، رحمه الله تعالى . ولقد شاهدت منه عجباً يدل على دينه وإرادته بعمله وجه الله تعالى . وذلك أنى كنت أسمع عليه ببغداد سنن أبي عبد الرحمن النسائى — وهو كتاب كبير — والوقت ضيق ، لأنى كنت مع الحجاج قد عدنا من مكة حرسها الله ، فبينما نحن نسمع عليه مع أخى الأكبر مجد الدين أبى السعادات ، إذ قد أتاه إنسان من أعيان بغداد ، وقال له : قد برز الأمر لتحضر ، الأمر كذا ، فقال : أنا مشغول بسماع هؤلاء السادة ووقتهم يفوت ، والذي يراد منى لا يفوت . فقال : أنالنا أحسن أذكر هذا فى مقابل أمر الخليفة . فقال : لا عليك ، قل ، قال أبو القاسم لا أحضر حتى يفرغ السماع . فسألناه ليشى معه ، فلم يفعل ذلك وقال : إقرءوا ، فقرأنا . فلما كان الغد ، حضر غلام لنا وذكر أن أمير الحاج الموصلى قد زحل ، فعظم الأمر علينا . فقال [الشيخ] : ولم يعظم عليكم العود إلى أهلكم وبلدكم ؟ فقلنا : لأجل فراغ هذا الكتاب . فقال : إذا رحلتم أستعير دابة وأركبها ، فأسير معكم وأنتم تفرمون ، فإذا فرغتم عدت . فضى الغلام ليتزود ونحن نقرأ ، فعاد وذكر أن الحجاج لم يرحلوا ، ففرغنا من الكتاب . فانظر إلى هذا الدين المتين ، يرد أمر الخليفة وهو يخافه ويرجوه ، ويريد [أن] يسير معنا ونحن غرباء لا يخافنا ولا يرجونا (٢) .

وشيخه ابن كليب الحرانى ، المتوفى سنة ٥٩٦ : « وفى هذه السنة — فى ربيع الأول — توفى شيخنا أبو الفرج عبد المنعم بن عبد الوهاب بن كليب الحرانى ، المقيم ببغداد . وله ست وتسعون سنة وشهران . وكان عالى الإسناد فى الحديث . وكان ثقة صحيح السماع (٣) .

وشيخه ابن شبة النحوى ، المتوفى سنة ٦٠٣ : « وفيها — فى شوال — مات شيخنا أبو الحرم مكى ابن ريان بن شبة النحوى المقرئ بالموصل . وكان عارفاً بالنحو واللغة والقراءات ، لم يكن فى زمانه مثله ، وكان ضريراً . وكان يعرف سوى هذه العلوم ، من : الفقه ، والحساب وغير ذلك معرفة حسنة . وكان من خيار عباد الله وصالحهم . كثير التواضع ؛ لا يزال الناس يشغلون عليه من بكرة إلى الصبح (٤) .

وشيخه ابن طبرزد ، المتوفى سنة ٦٠٧ : « وفيها توفى شيخنا أبو حفص عمر بن محمد بن المعمر بن طبرزد البغدادى ، وكان عالى الإسناد (٥) .

وشيخه الخطيب الطومى ، المتوفى سنة ٦٢٢ ، فى الوباء الذى انتشر فى الموصل فى هذه السنة ومات

-
- (١) الكامل ، ج ٩ / ص ٢٠٣ .
(٢) الكامل ، ج ٩ / ص ٢٣٩ .
(٣) الكامل ، ج ٩ / ص ٢٤١ .
(٤) الكامل ، ج ٩ / ص ٢٩٠ .
(٥) الكامل ، ج ٩ / ص ٣٠٥ .

منه كثيرون ، فمن مات فيه شيخنا عبد المحسن بن عبد الله الخطيب الطوسي ، خطيب الموصل . وكان من صالحى المسلمين ، وعمره ثلاث وثمانون سنة وشهور (١) .

وشيخه ابن العديم ، المتوفى سنة ٦٢٨ : « وفيها توفى القاضى ابن غنائم بن العديم الحلبي ، الشيخ الصالح . وكان من المجتهدين فى العبادة والرياضة والعاملين بعلمهم . فلو قال قائل ، إنه لم يكن فى زمانه أعبد منه لكان صادقا ، فرضى الله عنه وأرضاه ، فإنه من جملة شيوخنا . سمعنا عليه الحديث ، وانتفعنا برؤيته وكلامه (٢) . »

وكان ابن الأثير ينهز فرصة سفره إلى العراق والشام ، فيجتمع بشيوخها ويسمع منهم الحديث . فقد سمع ببغداد من عبد المؤمن بن كايب ، وعبد الوهاب بن سكينه مسند العراق . وسمع بدمشق من القاسم بن صصرى مسند الشام وزين الأمان بن عساكر .

وكان ابن الأثير محل تقدير وثناء من عرفه من معاصريه ومن جاء بعده واستفاد من مؤلفاته . فمن معاصريه ابن خلكان وسبط ابن الجوزى . أما ابن خلكان ، فقد كان على اتصال وثيق به ، وسبب ذلك أن والده — والد ابن خلكان — كان صديقا لابن الأثير ، لذلك كان ابن الأثير يكرم ابن خلكان ويقربه إليه . يقول ابن خلكان عن ابن الأثير ، إنه « كان إماما فى حفظ الحديث ومعرفة ما يتعلق به ، وحافظا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة . وخبيرا بأناسب العرب وأيامهم ووقائعهم وأخبارهم . » ويقول أيضا : « وكان بيته يجمع الفضل لأهل الموصل والواردين عليها . » ويذكر أنه اجتمع بابن الأثير فى حلب سنة ٦٢٦ ، وقد كان ابن الأثير ضيفا على الطواشى شهاب الدين طغريل الخادم أنابك الملك العزيز بن الملك الظاهر صاحب حلب ، وكان طغريل كثير الإقبال على ابن الأثير حسن الاعتقاد فيه ، مكرما له . يقول ابن خلكان ، إنه لما اجتمع بابن الأثير عند طغريل وجدده « رجلا مكلا فى الفضائل وكرم الأخلاق ، وكثرة التواضع ، فلازمت التردد إليه ، وكان بينه وبين الوالد — رحمه الله تعالى — مؤانسة أكيدة فكان بسببها يبالغ فى الرعاية والإكرام (٣) . »

وأما شمس الدين يوسف سبط ابن الجوزى ، فإنه لم يترجم له بالرغم من أنه نقل عنه فى كتابه « مرآة الزمان » غير أنه كان يقدره ويلقبه بالاستاذ ، فهو حين ينتقل عنه خبر وفاة نور الدين محمود بن عماد الدين زينكى ، يقول : « وذكر الأستاذ الجزرى فى تاريخه (٤) . »

ويصفه ابن كثير بأنه « الإمام العلامة » ، ويقول ، إنه أقام بالموصل فى آخر عمره ، « موقرا معظما إلى أن مات (٥) . »

ويقول عنه الذهبى ، « كان صدرا معظما كثير الفضائل (٦) . »

(١) الكامل ، ج / ٩ / ص / ٣٦٤ .

(٢) ابن خلكان ، ج / ٢ / ص / ٤٣٨ .

(٣) ابن كثير ، ج / ١٣ / ص / ١٣٩ .

(٤) الكامل ، ج / ٩ / ص / ٣٨٧ .

(٥) مرآة الزمان ، ج / ٨ / ص / ٣٢٠ .

(٦) شذرات الذهب ، ج / ٥ / ص / ١٢٧ ، عن « العبر » للذهبي .

ويقول عنه ابن العماد الحنبلي : « كان إماماً ، ذنباً ، مؤرخاً ، إخبارياً ، أدبياً ، نبيلاً ، محتشماً (١) » .

وفاته :

وقد توفي ابن الأثير في شهر شعبان من سنة ٦٣٠ ، وهو المشهور (٢) . غير أن بعض المؤرخين يشذ عن ذلك ، مثل : السبكي ، فيذكر أنه توفي في شهر رمضان من السنة (٣) . وأبو شامة يذكر أنه توفي في شعبان سنة ٦٣١ (٤) .

مؤلفاته :

سبق أن ذكرنا أن ابن الأثير اتجه الوجهة التاريخية في حياته العلمية . و نرجع السبب في هذا إلى ما كان يسمعه من أبيه في شبابه من أخبار الزنكيين ، حيث يذكر في مقدمة كتابه « التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية » ، أن والده كان يحذره عن أخبار الموصل وملوكها من بني زنكي ، وما نلاحظه من كثرة النقل عن والده في هذا الكتاب ، ولا شك أن القصد التاريخي قد استهواه ، فأكب على قراءة كتب التاريخ ، حتى إذا بلغ المرحلة التي يجب عليه فيها أن يحدد اتجاهه العلمي ، اختار التخصص في علم التاريخ والتأليف فيه ، يدلنا على هذا ، مؤلفاته التي تركها في المكتبة الإسلامية ، فبالرغم من أنه بلغ درجة الإمامة في حفظ الحديث ومعرفة ما يتعلق به ، كما يقول ابن خلكان (٥) ، فإنه لم يعن بالتأليف في علم الحديث ، أو في غيره من العلوم التي درسها ، بينما مؤلفاته المعروفة لدينا كلها في التاريخ .

يقول في مقدمة كتابه « الكامل في التاريخ » : « أما بعد . فإني لم أزل محبا لمطالعة كتب التواريخ ومعرفة ما فيها ، مؤثراً للاطلاع على الجلى من حوادثها وخافيتها ، ماثلاً إلى المعارف والآداب والتجارب المودعة في مطاوعها . . . » . فإبن الأثير يصرح بحبه للتاريخ ، وميله إلى المعرفة ، وهذا ما حذاه إلى الاتجاه الوجهة التاريخية .

ترك ابن الأثير في المكتبة التاريخية الإسلامية أربع كتب ، هي :

١ - اللباب في تهذيب الأنساب .

٢ - أسد الغابة في معرفة الصحابة .

٣ - الكامل في التاريخ .

٤ - التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (بالموصل) .

ومن أسماء هذه الكتب ، نرى أن ابن الأثير قد اهتم بالتاريخ بفروعه المختلفة ، اهتم بالتاريخ العام

(٢) وعحدد ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب ، ج/٥ /

(٣) طبقات الشافعية ، ج/٥ / س / ١٢٧ .

(٥) ابن خلكان ج/١ / س / ٤٣٨ .

(١) شذرات الذهب ، ج / ٥ / س / ١٣٧ .

(٢) أنه توفي في الخامس والعشرين من الشهر .

(٤) الذيل على الروضتين ، ص / ١٦٢ .

الممثل في «الكامل في التاريخ» ، وبالتراجم الممثل في «أسد الغابة» ، وبالأنساب الممثل في «اللباب» . كذلك اهتم بالتاريخ الخاص ، فأرخ لإحدى الأسر الحاكمة في الإسلام ، وهي أسرة بني زنكي في كتاب «التاريخ الباهر» ، فجمع بذلك علم التاريخ كله ، فأحسن فيه وأجاد ، وحاز ثقة من جاء بعده من المؤرخين القدامى ، ومن المهتمين بالدراسات التاريخية الإسلامية من المحدثين .

ولابن الأثير كتاب آخر لا يمت إلى التاريخ بصلة ، عثرناه «تحفة العجائب وطرفة العرائب» (١) وأحسب أن ابن الأثير أراد أن يرفه عن نفسه بتأليفه هذا الكتاب ، فجمع فيه ما استرعى انتباهه من قراءاته المختلفة . يقول في مقدمة الكتاب إنه ذكر فيه « ما أظهرته الحكمة الإلهية ، وما أبدعته القدرة الربانية من عجائب المخلوقات ، وغرائب الموجودات ، وطرزتها من ملح الأجناد (الأخبار؟) ونوادر الأشعار » .

اللباب في تهذيب الأنساب :

كتاب «الأنساب» الذي هذبه ابن الأثير ، هو لابن سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني المروزي ، من رجال القرن السادس ، فقد توفي سنة ٥١٠ . فقام ابن الأثير على تهذيبه واختصاره ، وقد ذكر سبب إقدامه على هذا العمل في مقدمة الكتاب ، فقال بعد أن مدح الكتاب وأشاد بالسمعاني وعمله ، أن السمعاني « قد أطلال واستقصى حتى خرج عن حد الأنساب وصار بالتواريخ أشبه ، ومع ذلك ففيه أوهام ، فشرح هو في «اختصار الكتاب والتنبيه على ما فيه من غلط وسهو» . ثم ذكر مجهوده وعمله في التهذيب بالتفصيل .

أسد الغابة في معرفة الصحابة :

وهذا الكتاب ، كما يدل عليه عنوانه ، تراجم للصحابة والصحابيات الذين صحبوا النبي في حياته . وقد ذكر في مقدمة الكتاب سبب تأليفه ، فقال : لأنه لم يعجبه من ترجم للصحابة غير أبي عبد الله ابن منده الأصفهاني ، وأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني ، والامام أبي عمر بن عبد البر القرطبي ، غير أن كلا منهم سلك طريقا يختلف عن الآخر ، وذكر بعضهم أسماء لم يذكرها صاحبه ، فرأى أن يجمع بين هذه الكتب وأن يضيف إليها ما شذ من كتاب أبي علي الغساني ، الذي استدرك فيه على كتاب ابن عبد البر . ثم ذكر طريقته في الجمع واستدراكاته في مقدمة طويلة .

السطر في التاريخ :

عن طريق هذا الكتاب نال ابن الأثير شهرته كمؤرخ من مؤرخي القرن السادس باعتبار مولده

(١) مخطوط بدار الكتب المصرية ، تحت رقم : ٤٩٩ ، جغرافيا .

وباعتبار مدة نصف القرن الذي عاشه فيه ، ومن رجال القرن السابع باعتبار وفاته وباعتبار مدة ثلث القرن الذي عاشه فيه . والواقع أن ابن الأثير قد أحسن في تأليف هذا الكتاب ، فقد جمع فيه أخبار العالم الإسلامي شرقه وغربه وما بينهما ، وهذا ما لم يسبقه إليه أحد .

يقول ابن الأثير في مقدمة كتابه ، إن من أسباب تأليفه الكتاب ، أنه وجد من سبقه من المؤرخين ، أن « الشرق منهم قد أخل بذكر أخبار الغرب ، والغربي قد أهمل أحوال الشرق ، فكان الطالب إذا أراد أن يطالع تاريخا احتاج إلى مجلدات كثيرة وكتب متعددة ، مع ما فيها من الإخلال والإملا . فلما رأيت الأمر كذلك ، شرعت في تأليف تاريخ جامع لأخبار ملوك الشرق والغرب وما بينهما ، ليكون تذكرا لي أراجعه خوف النسيان ، وآتي فيه بالحوادث والسكائنات ، من أول الزمان متتابعة يتلو بعضها بعضا إلى وقتنا هذا ، أي حتى سنة ٦٢٨ .

التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية :

وهذا الكتاب الذي أعدناه للنشر ، ألفه ابن الأثير عن دولة أقامتها أسرة من الأسرات الحاكمة في الإسلام ، هي أسرة عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آقسنقر الحاجب ، والتي يطلق عليها ابن الأثير ، « الدولة الأتابكية » ، نسبة إلى لقب « أتابك » (١) الذي أطلق على عماد الدين — مؤسس الدولة — بعد أن ولي إمرة الموصل سنة ٥٢١ .

قدم ابن الأثير كتابه بمقدمة أظهر فيها علاقة أسرته الوثيقة بملوك الموصل ، ولخص فيها جهادهم للصليبيين ، ثم ذكر سبب تأليفه الكتاب .

ثم بدأ بمرور أخبار الدولة فبدأ بقسيم الدولة آقسنقر — والد عماد الدين زنكي — فذكر صلته بالسلطان السلجوقي ملكشاه ، وولايته على حلب من قبله ، واشتراكه في مشاكل الأسرة السلجوقية بسبب التنافس على السلطنة بعد وفاة ملكشاه سنة ٤٨٥ . ثم ذكر مقتل قسيم الدولة سنة ٤٨٧ ، في حرب منافسة بينه وبين تاج الدولة تنش السلجوقي صاحب دمشق . وختم ابن الأثير أخبار قسيم الدولة بترجمة له ، أظهر فيها حسن سياسته في حلب وعدالة حكمه .

ثم تناول أخبار عماد الدين زنكي — الابن الوحيد لقسيم الدولة — منذ مقتل والده حتى وفاته سنة ٥٤١ ، فذكر رعاية أصحاب أبيه له ونشأته تحت رعايتهم ، فقد كان عماد الدين في نحو العاشرة من عمره حين توفي أبوه . ثم استقلاله بنفسه لما أن اشتد ساعده ، والتحاقه بخدمة أمراء الموصل ، واشتراكه معهم في حروبهم المحلية وحروبهم ضد الصليبيين ، ثم انتقاله إلى خدمة السلطان محمود السلجوقي ، وولايته شحنة وسط والبصرة وبغداد ، ثم بعد ذلك وولايته على الموصل سنة ٥٢١ . وهنا يأخذ ابن الأثير في تفصيل الخطوات التي اتبعها عماد الدين لتكوين دولة تحمل اسمه ، تضم بعض

(١) أنظر معنى لقب « أتابك » فيما يلي من النص ، ص / ١٨ / حاشية / ٨ .

إمارات الجزيرة والشام . كذلك ذكر الأخبار التي تشير إلى الصعوبات التي اعترضت طريقه أثناء تكوين دولته ، والتي تتمثل في الخليفة العباسي ، والسلطان السلجوقي ، وأمراء الجزيرة والشام المسلمين ، ثم الصليبيين . وقد أفاض ابن الأثير في سرد حروب عماد الدين ضد الصليبيين وجهوده في استرداد كثير من البلاد التي استولوا عليها ، سواء في الجزيرة أو في الشام .

ثم تناول ابن الأثير انقسام الدولة بعد وفاة عماد الدين سنة ٥٤١ ، بين ولديه سيف الدين غازي الذي ملك الموصل والجزيرة ، ونور الدين محمود الذي استقل بحلب وتوابعها بالشام .

دون ابن الأثير أخبار سيف الدين غازي بن عماد الدين ، وكان عهد سيف الدين قصيرا (٥٤١ — ٥٤٤) ، ومن أبرز أعماله ، أنه منع خلفا خطيرا كاد أن يقع بينه وبين أخيه نور الدين . ثم إنّه حافظ على أملاك الدولة بالجزيرة من الطامعين بها من أمرائها ، ثم كان له الأثر الكبير في منع سقوط دمشق في يد امبراطور الروم الذي حاصرها مع الصليبيين سنة ٥٤٣ .

ثم سرد ابن الأثير أخبار قطب الدين مودود ، الذي خلف أخاه سيف الدين على الموصل (٥٤٤ — ٥٦٥) . فذكر الخلاف الذي حدث بينه وبين أخيه نور الدين بسبب مدينة سنجار والذي انتهى بالصلح بينهما . ثم ذكر مشروع سلطنة سايان شاه السلجوقي على همذان ، وتعيين قطب الدين أتابكا له ومدبر الشؤون سلطنته وفشل هذا المشروع . كذلك سرد خبر النزاع على ملك الموصل بين ولدي قطب الدين أثناء مرضه ، وأثر نفوذ رجال الدولة في هذا النزاع ، الذي انتهى بملك ابنه سيف الدين غازي (الثاني) سنة ٥٦٥ .

كذلك تناول ابن الأثير أخبار نور الدين محمود (٥٤١ — ٥٦٩) . فذكر استيلاءه على حلب بعد وفاة أبيه ، وجهاده للصليبيين . واسترداده بعض البلاد الإسلامية منهم . كذلك ذكر استيلاءه على دمشق سنة ٥٤٩ ، ومصر سنة ٥٦٤ ، والموصل سنة ٥٦٦ . كذلك تحدث عن الخلاف الذي نشب بين نور الدين وصلاح الدين بعد أن حل صلاح الدين محل عمه أسد الدين شيركوه في مصر ، لاختلاف وجهات النظر بينهما في حرب الصليبيين .

ثم ذكر ابن الأثير أزمة الاستخلاف التي حدثت في البيت الزنكي بعد وفاة نور الدين محمود سنة ٥٦٩ . بسبب صغر سن الصالح إسماعيل ، الابن الوحيد لنور الدين ، والتي آلت الدولة بسببها إلى صلاح الدين الأيوبي . ماعدا الموصل وسنجان وجزيرة ابن عمر .

وفي الفترة ما بين سنتي ٥٦٩ و ٦٠٧ ، أرخ ابن الأثير لملوك الموصل تاريخا مختصرا ، ذكر فيه أخبار سيف الدين غازي (الثاني) بن قطب الدين مودود الذي استمر حكمه حتى سنة ٥٧٦ ؛ وأخبار عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود الذي خلف أخاه سيف الدين ، وقد ظل يحكم الموصل حتى وفاته سنة ٥٨٩ وكذلك أخبار نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود ، ودام حكمه إلى سنة ٦٠٧ .

فدون أخباراً قليلة عن علاقتهم بصلاح الدين وخلفائه ؛ وكانت علاقة تتأرجح بين الخصومة والود .
ثم ذكر ملك القاهر مسعود بن نور الدين أرسلان شاه سنة ٦٠٧ .

وختم ابن الأثير أخبار كل ملك من ملوك الأسرة الزنكية بترجمة له ، فصل فيها أخلاقه ومآثره ،
وما أفادته الموصل في عهده .

كذلك ترجم ابن الأثير لبعض كبار رجال الدولة من الوزراء والقواد ؛ وأبرز في هذه التراجم ،
أثر بعضهم في نشأة الدولة وارتقائها ، وأثر بعضهم الآخر في إضعافها .

ملاحظات على « الباهر » :

وهناك بعض ملاحظات على ابن الأثير في كتابه « الباهر » .

فقد ترجم لبعض الشخصيات التي لاتمس موضوع الكتاب إلا مساً خفيفاً ، مثل ترجمته للطغرائي ،
ونظام الملك ، وسليمان بن قنبلش ، وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان .

ولم يدون ابن الأثير أخبار الصراع بين الزنكيين — خلفاء نور الدين — وبين صلاح الدين وخلفائه ،
وسبب ذلك أن أخبار هذا الصراع ، تظهر ضعف الزنكيين أمام صلاح الدين وخلفائه ، وهزائمهم في
حروبهم معهم ، كذلك ثبت أخبار الصراع ، خضوع الزنكيين لصلاح الدين وخلفائه خضوعاً تاماً ،
فمتجنب ابن الأثير لإثبات هذه الأخبار التي تبرح أصحابها ، لئلا يخدش كبرياء الملك القاهر الذي ألف له
الكتاب ، واكتفى بإحالة القارئ إلى كتابه الكبير « الكامل في التاريخ » ، ويسميه في « الباهر » ،
« المستقصى في التاريخ » .

كذلك خرج في بعض الحوادث على مبدأ الحيادة الذي اتبعه في كتابه الآخر ، ففي « الكامل »
فسر هذه الحوادث من واقعا وعلى وجهها الصحيح ، بينما فسرها في « الباهر » تفسيراً مخالفاً ، لإرضاء
للملك القاهر . مثال ذلك ، الخبر الذي ذكره في « الباهر » ، عن قصد ديبس بن صدقة بغداد سنة ٥١٦ ،
وخبر حصار عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود — جد الملك القاهر — جزيرة ابن عمر . وخبر
حصار الملك العادل الأيوبي مدينة سنجار سنة ٦٠٦ .

وضغط ابن الأثير بعض الأخبار في « الباهر » ، ضغطاً كبيراً ، فجاءت قليلة التفاصيل ، وإن كان
قد حرص على إحالة القارئ إلى كتابه « الكامل » ، لإستزادة من تفاصيل الخبر .

والملاحظة الأخيرة ، وجود اختلافات في تواريخ بعض الحوادث والأخبار بين « الباهر »
و « الكامل » ، أشرنا إليها في حواشي المخطوط .

وابن الأثير ، وإن كان ذكر أخبار الزنكيين ورجال دولتهم في كتابه الكبير « الكامل » . إلا أنه في كتابه « الباهر » قد أمدنا بمعلومات قيمة لم يذكرها في « الكامل » ، فهو قد أعطانا معلومات عن مصير عماد الدين بعد مقتل والده وتمقله في خدمة أمراء الموصل واشترائه معهم في حروبهم منذ صغره ، ومن ذلك عرفنا سر نجاحه الحربى والمدنى . كذلك أمدنا بمعلومات عن كيفية نجاحه في تكوين دولته وسياسته الحازمة في حكمه .

كذلك أمدنا بمعلومات قيمة عن حياة نور الدين الخاصة والعامة لم يذكرها في « الكامل » ، بحيث أصبحت شخصية نور الدين واضحة المعالم للباحث والدارس .

وقد تخللت تراجم الزنكيين وكبار رجال دولتهم معلومات ، لم ترد في « الكامل » ، عن النظم الزنكية وعن جهودهم في تحسين أحوال الموصل الداخلية ، في النواحي الاجتماعية والاقتصادية والعلمية .

كذلك أبدع ابن الأثير في وصفه المعارك التي دارت بين الصليبيين وبين كل من عماد الدين ونور الدين وإبراز الجهود الضخمة التي كان يبذلها كل من الزنكيين والصليبيين من ناحية الاستعداد للعمليات الحربية ، واستماتة كل من الفريقين في القتال . والكتاب بعد ذلك ، يعد مكلاماً لما ينقص من أخبار الزنكيين في كتاب « الكامل في التاريخ » .

أسلوب ابن الأثير في « الباهر » :

كتب ابن الأثير كتابه « الكامل » بأسلوب المؤرخ الذى تهمة المادة التاريخية أكثر مما تهمة البلاغة والأساليب البيانية ، فهو في « الكامل » يسرد حقائق بعبارات موجزة ؛ بينما جمع في « الباهر » بين المؤرخ والأديب فاستعمل السجع بتوسع كبير . وذلك لكي يتيسر له الوصف المؤثر في المناسبات الخطيرة ، مثل وصفه المعارك التي دارت بين الصليبيين وبين عماد الدين ونور الدين ، وغير ذلك من المناسبات ، فنجد مثلاً أنه افتتح كتابه بمقدمة مسجوعة ، وختمه أيضاً بخاتمة مسجوعة .

ويستشهد ابن الأثير بالشعر في كثير من المناسبات وللإشادة بالزنكيين ، بعضه لشعراء معاصرين للزنكيين مثل : محمد بن نصر بن صغير بن عبد الله القيسرانى ، وسعد بن محمد المعروف بالخصيص بيص ، وأحمد بن منير الطرابلسى . وبعضه لشعراء غير معاصرين كأبي تمام ، كذلك استشهد بأبيات من الشعر لم نستطع الاهتداء إلى أصحابها .

كذلك يضرب ابن الأثير الأمثال في بعض المناسبات ، وذلك عند سخريته بالصليبيين وهزائمهم من المسلمين . ففي سنة ٥٦٥ حاصر الصليبيون دمياط للاستيلاء على مصر ؛ ولكنهم هزموا هزيمة منكرة ، ورجعوا إلى بلادهم . فيسخر منهم ابن الأثير ، فيقول : « وهذا موضع المثل ، ذهبت النعامه تطلب قرنين فعادت بلا أذنين » . وفي سنة ٥٦٧ ، استولى الصليبيون على مركبين تجاريين للمسلمين برغم

الهدنة التي بينهم وبين نور الدين ، فطلب نور الدين منهم ردّهما ، فأبوا ، فأغار نور الدين على حصن عرقه — وهو لهم — وخرّبه ، واستولى منهم على « صافيتا » و « العريمة » ، عندئذ أعادوا المركبين وطلبوا من نور الدين تجديد الهدنة ، فقال ابن الأثير ساخرا بهم : « فكانوا في ذلك كما يقال : اليهودى لا يعطى الجزية حتى يلطم . وكذلك الفرنج ما أعادوا أموال التجار بالتي هي أحسن ، فلما نهبت بلادهم وخرّبت أعادوها . »

مصادره :

ذكر ابن الأثير في مقدمة الكتاب ، أنه اعتمد في مادته على ما سمعه من والده ، وقد أكثر من الرواية عنه . غير أنه ذكر مصادر أخرى رجح إليها — وإن كان رجوعه إليها في مناسبات قليلة — مثل : « تاريخ دمشق » لابن عساكر (١) ، « أخبار حلب » لابن العديم (٢) ، « المعاد الكاتب من بعض مصنفاته (٣) . كذلك نقل عن بعض الشخصيات المعاصرة للحوادث ذكر أسماء بعضها وأهل ذكر بعضها الآخر فضلا عن أن مادة الكتاب ، هي نفس مادة كتاب « الكامل » مع فارق واحد هو فارق الأسلوب الذي تحدثنا عنه من قبل (٤) .

المخطوطة :

مخطوطة « التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية » نسخة وحيدة ليس لها أخت ، وهي موجودة بالمسكينة الأهلية بباريس تحت رقم ٨١٨ من المجموعة العربية بعنوان : « تاريخ الدولة الأتابكية ملوك الموصل » . وقد أحضرت النسخة ميكروفيلم من باريس ، فوجدت أن المخطوطة لا تحمل عنواناً ، وقد جاء عنوانها عند مؤلفها ابن الأثير — في كتابه الآخر « الكامل في التاريخ » ، في عدة مواضع منه ، هكذا : « التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية » ، « الباهر » ، « والباهر في أخبار دولتهم » (٥) ، فاعتمدنا نحن العنوان الكامل ، الذي ظهرت به الطبعة التي بين يدي القارىء . كذلك لا تحمل المخطوطة اسم المؤلف ، غير أن هذه الصعوبة أمكن التغلب عليها حيث يوجد بالمخطوطة ما يؤكد إلى أن مؤلفها هو ابن الأثير ، حيث يشير في أماكن منها إلى والده وإلى أخيه مجد الدين أبي السعادات ، وإلى كتابه « الكامل في التاريخ » .

وتقع المخطوطة في ٤٦١ صفحة ، وتحتوى كل صفحة على ثلاثة عشر سطرا ، ويختلف عدد السكّات في السطور ، ما بين سبع وعشرة كليات .

(١) ص/٨٩ (من النسخ) . (٢) ص/١٢٦ (من النسخ) . (٣) ص/١٧٤ (من النسخ) .
 (٤) يعد المحقق بحثا مستقبضا عن ابن الأثير ، مع دراسة مؤلفاته ومنها « الكامل في التاريخ » وتحديد مصادره .
 (٥) الكامل في التاريخ ، ص/٨ / ص/٣٠٩ / ص/٣١٠ ، > ٩ / ص/١٣ / ص/١٤ / ١٢٥ .